لبنان الداخل... لبنان الخارج

الحياة ١٢/٥/١٩٩٠

غسان سلامة *

■ هي الصورة التي تنبىء لا الكلام. صورة بيروت اليوم مدينة من مدن العالم الفقير المتخلف: تلال القمامة والبيوت التي لم ترَ دهاناً من عقود، واسلاك الكهرباء تتدلى من الجدران والعواميد. صورة تراها بعينيك عندما تزور عاصمة لبنان، وتراها تتكرر على صفحات الجرائد، وشاشات التلفزيون. وككل مدينة مجبولة بالتعاسة والفقر والعوز، وكمثل بومباي، والقاهرة، فان بيروت اليوم تعرف ايضاً بعض الزوايا الثرية جداً، المعدومة الثقافة العائشة الى جانب بحيرة التعاسة الشاملة وعلى حسابها: السمرلاند وامثاله من الفنادق... على مرمى حجر من الضاحية.

صورة أخرى، انما من الخارج: مكتب مقاول لبناني في احدى أغلى جادات باريس. امتار مربعة بالمئات، لصاحب العمل، ولسكرتيرته ولبعض معاونيه، مساحات هائلة بالمقاييس الاوروبية حيث الايجار هو بآلاف الدولارات للمتر المربع الواحد. قلائل جداً هم ارباب العمل الفرنسيون الذين يحتلون مكاتب بهذه المساحة، او بهذه الفخامة. واعمال، يديرها الرجل الستيني اللطيف، الذكي اللحظات بعينيه، وانما المرتاح تماماً لعظمة ما جنته يداه من الأعمال، في مختلف اصقاع ارض، من تجارة وانتاج وعقارات.

انما الكلام واحد، عن لبنان. الكلام واحد، المفردات واحدة، طبعاً. لكن المعنى مختلف. لقد حصل شيء خلال الاشهر بل الاسابيع الماضية قضى على أمر لم تكن الحرب قد قضت عليه فعلاً. كان الآلاف من اللبنانيين يعيشون في وطن من اختراعهم اسمه وطن المابين: ما بين باريس وبيروت، ما بين جدة وباريس وبيروت، ما بين الظهران ولندن وبيروت، ما بين شاطىء العاج وبيروت. كانت الألوف منهم في تنقل دائم، كان طائرات «البوينغ» هي عنوانهم الحقيقي. وغالباً ما كنت تسمعهم يتفقون في باريس على موعد عشاء في جونيه، او يتفاوضون في لاغوس على قطعة ارض في... صور. كانت الزوجة في بلد، وبعض الاولاد في بلد آخر (بسبب التعليم، او اللغة... او المحافظة على البيت من الاحتلال). والحالة النفسية كانت مزيجاً من الانتظار والترقب والتهيؤ للانتقال: للهجرة الى الخارج، او للعودة نحو الوطن او، في غالب الأحيان، للانتقال المؤقت وفقاً لمواسم الطقس او لمواسم السياسة من الداخل الى الخارج، ومن الخارج الى الداخل.

ما الذي حصل الآن، حتى يبدو الداخل داخلاً فحسب والخارج خارجاً فقط؟ أهي نتائج الصيف اللاهب وخريف الطائف الهشة المحبطة؟ أهو القتال الدامي الحاصل في الشرقية؟ أهي قفزة الدولار فوق عتبة الخمسمئة ليرة واستمرار الضائقة الاقتصادية بل استفحالها؟ هذه كلها وغيرها من الأسباب، تؤدي حالياً الى انهاء وطن المابين، الى تكلّس الداخل داخلاً والخارج خارجاً، الى الاستقرار في الوطن او الانكفاء في الغربة، والى تضاؤل ملموس في ذاك التواصل العجيب الذي كان قائماً بين «جواً» و«براً».

فالمقيمون في الخارج تراهم اليوم، بعد سنوات من الانتظار، يأتون بمفروشات منزلهم البيروتي، ويستقدمون اقرباءهم الذين كانوا ما زالوا هناك، ويخففون من متابعة اخبار البلد او يكادون ينقطعون عنها. آلاف منهم يقررون طلب جنسية البلد الذين يقيمون فيه. والذي كان ما زال يرغم اولاده على تعلم العربية يوم السبت بعد الظهر الى جانب دروسهم الأخرى، توقف عن مطالبتهم بذلك. والذي كان يئن من معاشرة اولاده لأولاد الأجانب، او خطبتهم لهم او زواجهم منهم، غض النظر عن ذلك، «لأن البنت ستكبر وتشيخ قبل ان تلتقي ابن بلدها». لقد انكسر شيء ما. الداخل اصبح جزءاً حقيقياً من القارة الآسيوية. فالمقيمون في لبنان «يتمتعون» بدخل شهري يقارب الدخول الهندية والايرانية. وحصولهم على العملات الصعبة صار صعباً بقدر حصول العراقيين او السوريين عليها. اما المواد المستوردة فلا تزال أمامهم، يرمقون اليها بنظرهم، لكنها دون متناول دخولهم التعيسة على تزايد ارقامها، بالليرة اللبنانية.

والسياسة اللبنانية، هي ايضاً اصبحت جزءاً من أعمال آسيا وافريقيا. لقد أصبح اللبنانيون يتوقعون «تعيين نواب» بعدما كانوا يتندرون بممارسات كهذه عند جيرانهم. وبين قادتهم الشرعيين، والعسكريين، والميليشياويين، عشرات ممن تدرجوا من الفئات الاجتماعية الدنيا، حاملين معهم اوهاماً عن السلطة، واحلاماً بالتسلط حتى فضائحهم صارت صغيرة، محلية، من دون رونق الفضائح الدولية... بآلاف الدولارات تكون الصفقة والسرقة.

اما الخارج، فهو يسير قدماً في مجال الاندماج حيث هو. وقد يكابر ويرغض وينتظر، لكن اولاده يندمجون: لغوياً وثقافياً واقتصادياً، وبالتالي سياسياً واخلاقياً. لذلك فالمهتمون بلبنان، كانوا حتى الأمس القريب يسعون الى العودة اليه، وممارسة دور فيه وربما ان يصيروا رؤساء ووزراء ونواباً. أما اليوم فان لبنان يصبح نوعاً من الذكرى، اما همهم في مجال الشأن العام، فقد صار تنظيم اوضاعهم كجالية مهاجرة، وانشاء الجمعيات التي تحسن صورتهم في المهاجر، وتنظفها من شوائب ما يلصق اجمالاً باللبنانيين من اعمال التهريب، والمخدرات والارهاب والتلاعب بالعملات والشركات. وعندما زار رئيس نيجيريا فرنسا اخيراً، امتلأت صحف باريس بصفحات الترحيب الاعلانية التي دفع ثمنها لبنانيو نيجيريا عداً ونقداً. اما الذين يعيشون في افريقيا ويخافون من الغد المستحيل فيها، فانهم باتوا يفكرون في منزل في مونتريال او سيدني تفكيرهم بالبيت الذي تركوه في جونيا او قانا او الزرارية.

اما الداخل، فهو يدبر نفسه ما استطاع. ومن المشاهد الملموسة الآن هو السقوط السريع في معنى السياسة اللبنانية. حتى الأمس القريب، بل خلال الحرب نفسها، كانت السياسة ما زالت الباب الملكي امام الجاه والثروة. اما الآن، فما هو متداول للتجانب من جاه وثروة اصبح هشاً لدرجة القرف من ضرورة التنافس عليه. كان التوزير شاناً خطيراً، وقلائل هم الذين يسعون اليوم اليه. كانت النيابة امراً خطيراً، اما اليوم، فمن هم الساعون اليها؟ اما ان تكون مديراً عاماً في لبنان اليوم او غداً فما معناه العملي، ان لم يكن مئات من الدولارات الحقيرة، ولا شيء سواها؟ اصبحت السياسة نوعاً من الممارسة العادية الى اقصى الحدود، أي غير المثيرة للتنافس او للغيرة، وغير المنتجة للاعجاب او الانبهار. والسياسيون اللبنانيون، خارج اطار الدولة الهش حتى كاد ان يكون معدوماً، او داخل ذلك الاطار، عاديون جداً، عاديون حتى الملل. وبعضهم، ليس عادياً فحسب، بل مبتذلاً.

ولا ريب ان هناك بعداً آخر ضمنياً في هذا التكلّس المتوازي للداخل والخارج، هو البعد الطائفي. لقد قيل الكثير في جنوح المسيحيين الحالي نحو الهجرة، والأرقام مقلقة فعلاً، ولو انها من قبيل التخمينات. وهناك من يبالغ في تقدير تدني نسبة المسيحيين الى عدد السكان الاجمالي، وقد يكون هو نفسه سياسياً مسيحياً يحاول بذلك تبرير نزوعه الى الهجرة النهائية. لكن الواقع المعيوش هو الى حد كبير اهم من الارقام والوقائع. وذاك الواقع يشير الى هبوط كبير في صورة لبنان كبلد يتميز عن الدول العربية الأخرى بنشاط مسيحييه السياسي. طبعاً، انه انزلاق من صورة الى اخرى، لا من أبيض الى اسود، لكن الانزلاق ذاك واقع حالياً... كبقاء رئيس الجمهورية في الرملة البيضاء واعترافه بانه قد لا يذهب ابداً الى بعبدا، او كالتلهاء جل الموارنة في سياسة داخلية عندهم لا علاقة لها مباشرة بالوطن. وقد عاجل سفير لبناني ابناء جالية يرعى امورها عندما اشاروا الى ان ٩٠ في المئة من مهاجري احدى العواصم هم من المسيحيين بقوله: سيصبحون مئة في المئة ان بقيت السياسة المارونية على ما هي.

الداخل داخل والخارج خارج ووطن المابين الى انتهاء: يمكن مواجهة وضع كهذا بالحنين الى ماض اندثر، او بالترحم على أيام مضت. وهذا ما تسمعه اجمالاً. يمكن ايضاً ان تحاول البحث عن عناصر ايجابية في الأوضاع الجديدة. فأحوال البلاد تدعونا فعلاً الى الواقعية، وتخفف من شعور اللبنانيين بالعظمة والتفوق. لقد صار بلدهم، بمقاييس كثيرة، عادياً، وقد يؤذي هذا بعضهم اكثر من الحرب نفسها، لأن ايديولوجيته قامت على قاعدة الاختلاف والتميز بأي ثمن عن محيطهم الجغرافي. اما الآن فقد اصبح وطنهم عادياً، وحربهم عادية، وطوائفهم عادية، وانتماء اقتصادهم الى العالم المتخلف عادياً، وسياستهم عادية، وفضائحهم عادية... وتجاهلهم في العالم، ممارسة عادية ايضاً.

وهذه العناصر العادية، موجعة كثيراً، لأن عادات المنطقة في التخلف والتبذير، في هبوط مستوى التعليم والثقافة، في السياسة الهامشية والتسلطية... كل هذه العادات ليست جميلة وحبذا لو استطاع اللبنانيون تجنبها. لكنهم، لأسباب كثيرة، ما استطاعوا ذلك، وجاء اليوم الذي بدأوا فيه بدفع فواتير اوهامهم حول هويتهم «المميزة»، وبلدهم «المميز»، وسياستهم «المميزة». وقد تكون اللحظة موجعة، وهي فعلاً كذلك، لكنها قد تكون ايضاً، مناسبة ممتازة لمراجعة بعض الحسابات القديمة، وللانطلاق من واقع عادي حتى التفاهة، لبناء وطن جديد لا يتميز باوهام ابنائه الموروثة من جيل الى آخر، بقدر تميزه بمقدرتهم على النظر الصريح الى واقعهم المزري، وبالتالي، على تجاوزه.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.